مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

خطاب النصح في تائية أبي إسحاق الإلبيري:

دراسة لغوية

د. عبدالعزيز السيد عبدالعزيز البديوي

مدرس الدراسات اللغوية بقسم اللغة العربية

كلية الألسن – جامعة عين شمس

DOI: 10.21608/qarts.2023.223150.1713

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد (٣٢) العدد (٦٠) يوليو ٢٠٢٣

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

خطاب النصح في تائية أبي إسحاق الإلبيري: دراسة لغوية

الملخص:

النصيحة كلمة يعبَّر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يُعبَّر عن هذه اللفظة بكلمة واحدة تحصرها وتجمع معناها غيرها. وأما خطاب النصح فهو الخطاب الذي تستخدم فيه الوسائل البلاغية للتشجيع على المضي قدمًا في الإصلاح الأخلاقي، أو لتشجيع عمل أخلاقي مميز على أساس من التجربة أو الاعتقاد أو الأمل المشترك.

والبيئة الأندلسية بيئة علم وأدب وأخلاق، وقد كان لأهل العلم فيها منزلة عالية؛ لذلك كان الحث على طلب العلم والسعي في طلبه أرفع نصيحة يمكن أن يقدمها ناصح لمنصوح أو أب لابنه. وهذا ما فعله أبو إسحاق الإلبيري (ت ٤٥٩هـ)؛ حيث وضع تائيته المشهورة بـ "وصية ناصح"، وهو يحث فيها ولده على طلب العلم والعمل به والتخلق بالأخلاق الكريمة.

وتتخذ الدراسة منطلقات لغوية متعددة، منها: تحليل الخطاب، والحجاج، والتداولية؛ حيث إنها تسعى إلى الكشف عن كل الجوانب المتاحة في خطاب النصح، فتحليل الخطاب يمكنه الكشف عن طبيعة العلاقة بين المرسل والمتلقي بصورة واضحة، والحجاج يمكنه أن يكشف عن وسائل التأثير والإقناع لدى المتلقي في هذا النوع من الخطاب، أما التداولية فتهتم بدراسة المعنى كما يصدر من المتكلم أو الكاتب وتفسيره من قِبَل المستمع أو القارئ.

الكلمات المفتاحية: خطاب، النصح، الإلبيري، لغوية

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، وبعد...

فإن النصح والإرشاد والتوجيه فطرة إنسانية عامة، أتت الشرائع والأديان بتأييدها وإقرارها، وجاء الإسلام ليجعلها واجبًا دينيًا يروم حفظ الناس، وحفظ الأخلاق والقيم الإنسانية، وإن كانت النصيحة في العموم أمرًا واجبًا فطرةً وديانةً؛ فإنها تكون تجاه الأبناء أوجب؛ لتضاعف تلك الفطرة تجاههم، والرغبة الخالصة في صلاح أحوالهم، كما أن العلاقة بين الآباء والأبناء من أوثق العلاقات الإنسانية، وقد كانت محل تلبس بموضوعات أدبية كثيرة وعلى رأسها النصح.

والنصيحة كما يقول ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ): "كلمة يعبَّر بها عن جملة: وهي إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يُعبَّر عن هذه اللفظة بكلمة واحدة تحصرها وتجمع معناها غيرها"[١]، فهي كلمة جامعة تحقق هدفًا جامعًا (إرادة الخير) للمنصوح له، بما تحمل كلمة (إرادة) من إخلاص الناصح، وصدق عزمه، وما تحمله كلمة (خير) من كل عطاء نافع يحرص عليه الناصح للمنصوح[٢]. و"إرادة الخير" تكون من خلال طريقين: الأول منهما إلحاق المنفعة، والثاني دفع المضرة أو التحذير من المفسدة، وبذلك تكون النصيحة مصطلحًا ذا بعدين رئيسين، هما: الحث على الخير، والتحذير من الشر؛ لذلك هي وثيقة الصلة بالإشفاق والمودة.

---

(١) ابن الأثير (مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، جـ ١١، صـ ٥٥٨.

(٢) عبد المنعم عبد الله حسن، الظلال الدلالية لمفهوم النصيحة، ضمن كتاب مؤتمر النصيحة.. المنطلقات والأبعاد، كلية الدعوة والإعلام، جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، د.ط، د.ت، صـ ٥٣.

وأما خطاب النصح فهو الخطاب الذي تستخدم فيه الوسائل البلاغية للتشجيع على المضي قدمًا في الإصلاح الأخلاقي، أو لتشجيع عمل أخلاقي مميز على أساس من التجربة أو الاعتقاد أو الأمل المشترك. ويمكن أن يكون الحث صرفًا عن القيام بفعل ما؛ لكونه مناقضًا لبعض الأفعال، أو إقناعيًّا لكونه موجِّهًا للمسئولية تجاه عمل إيجابي ما(١).

ولأن الأدب عامة والشعر خاصة تعبير عما جُبل الإنسان عليه فطرةً، وعما أُمر به ديانةً، فقد وجد خطاب النصح مكانًا كبيرًا في الأدب العربي الإسلامي حتى أصبح يمثل اتجاهًا أدبيًا مستقلًا له خصائصه ومميزاته، حيث أفرد الكتاب كتبًا وأبوابًا وفصولًا لهذا الغرض، وأطلقوا عليه الوصايا، ككتاب "وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود" لدعبل بن علي الخزاعي، وغيره، كما لأفرد الشعراء له قصائد، كالقصيدة موضوع الدراسة.

والبيئة الأندلسية بيئة علم وأدب وأخلاق، وقد كان لأهل العلم فيها منزلة رفيعة ومكانة عالية(٢)؛ لذلك كان الحث على طلب العلم والسعي في طلبه أرفع نصيحة يمكن أن يقدمها ناصح لمنصوح أو أب لابنه. وهذا ما فعله أبو إسحاق الإلبيري (ت ٤٥٩هـ)؛ حيث وضع تائيته المشهورة بـ "وصية ناصح"، وهو يحث فيها ولده على طلب العلم والعمل به والتخلق بالأخلاق الكريمة.

وغني عن البيان أن اللغة هي الوسيلة التي يمكن من خلالها نقل الأفكار، أو هي الوعاء الحقيقي للفكر، كما أنها تحمل الانفعالات الإنسانية المختلفة، وتختلف أنماطها

(١) توماس أ. سلوان، موسوعة البلاغة، ترجمة: نخبة بإشراف عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، صـ ٨٣٩.

(٢) انظر: خليل إبراهيم السامرائي، وآخران، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، صـ ٣٣٨.

وأشكالها من موضوع إلى آخر، ومن غرض إلى آخر، ومن مقام إلى آخر، ومن مبدع إلى آخر، ومن مخاطَب إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، ومن هنا جاءت فكرة دراسة خصائص لغة النصح في الخطاب الشعري في البيئة الأندلسية، ولا شك أن هذه اللغة لها ما يميزها عن غيرها من ألوان الخطاب عامة والخطاب الشعري خاصة. وقد اتخذت الدراسة تائية أبي إسحاق الإلبيري المشهورة بـ "وصية ناصح" نموذجًا تطبيقيًا لها.

وتهدف الدراسة إلى الكشف عن الخصائص المتنوعة لخطاب النصح في نص من النصوص الشعرية المتميزة في العصر الأندلسي، ومن ثَمَّ تتخذ منطلقات لغوية متعددة، منها: تحليل الخطاب، والحجاج، والتداولية؛ حيث إنها تسعى إلى الكشف عن كل الجوانب المتاحة في خطاب النصح، فتحليل الخطاب يمكنه الكشف عن طبيعة العلاقة بين المرسل والمتلقي بصورة واضحة، والحجاج يمكنه أن يكشف عن وسائل التأثير والإقناع لدى المتلقي في هذا النوع من الخطاب، أما التداولية فتهتم كما يقول يول Yule "بدراسة المعنى كما يصدر من المتكلم أو الكاتب وتفسيره من قِبَل المستمع أو القارئ"[١]، فالتيار التداولي مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات عند استعمالها؛ أي حينما تكون متداولة بين مستخدميها"[٢]، أو "دراسة الاتصال اللغوي في السياق"[٣].

(1) Yule George, (1996), Pragmatics, Oxford Oxford University Press, p3.

(٢) عبد الله جاد الكريم، التداولية في الدرس النحوي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، صـ ١٨.

See: Leech, G. (1983), Principles of pragmatics, Longman Group Limited, London, p.204.

(٣) عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب.. مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، صـ ٢٢.

وبتضافر هذه المنطلقات يمكن للدراسة أن تؤتي ثمارها، ومن ثمَّ تشتمل الدراسة بعد المقدمة على خمسة مباحث، وخاتمة، وثبت بالمصدر والمراجع التي استعانت بها الدراسة، ويمكن عرض ذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: صياغة الهوية بين المرسِل والمتلقي في خطاب النصح: ويتناول الوسائل التي استخدمها الإلبيري في تغيير الهوية أي العلاقة بين المرسل الناصح (الإلبيري) والمرسل إليه المنصوح (ابنه).

المبحث الثاني: المقام وصياغة معجم المرسِل في خطاب النصح: ويتناول الألفاظ التي تشكل معجم الإلبيري في مقام النصح من خلال معجمي الترغيب والترهيب.

المبحث الثالث: الإستراتيجيات التوجيهية في خطاب النصح: ويتناول الإستراتيجيات التداولية التوجيهية من أمر ونهي واستفهام.

المبحث الرابع: الإستراتيجيات الحجاجية في خطاب النصح: ويتناول الظواهر والقيم الحجاجية المتنوعة التي وظفها الإلبيري من أجل القيام بعملية الإقناع نحو: التعليل، والمقابلة، والتبادل، والاستعارة.

المبحث الخامس: تداولية الأخبار في خطاب النصح: ويتناول الجملة الفعلية (توظيف الزمن)، والجملة الاسمية.

الخاتمة: وتتناول أهم ما تتوصل إليه الدراسة من نتائج.

ولا شك أن الوقوف على هذه الجوانب في خطاب النصح يكشف عن قيمته وأهميته، وطريقته في التأثير في المتلقي، وهو ما يساهم في بيان نمط من أنماط الاستعمالات اللغوية في غرض من أغراضها.

قد استعانت الدراسة في تحليلها لخطاب النصح عند الإلبيري بتحليل تائيته، محاولةً استخراح العناصر اللغوية التي اشتملت عليها وساهمت في بنائها. كما استعانت الدراسة بعدد من المراجع العربية والمترجمة والأجنبية المتعلقة بموضوع البحث.

المبحث الأول

صياغة الهوية بين المرسِل والمتلقي في خطاب النصح

لأن الخطاب دائمًا ما يكون بين طرفين، الأول منهما: مرسِل، والثاني: متلقٍ، فإن المرسِل غالبًا ما يحاول صياغة هوية محددة بينه وبين المتلقي، تكون هذه الهوية خادمة لغرضه ومتلائمة مع المقام الذي يُخرج فيه رسالته. وقبل التحدث عن صياغة الهوية أو إنشائها لا بد أن نكون على معرفة بعناصر الاتصال قبل تشكيل تلك الهوية وإعادة صياغتها. ويمكن ذلك من خلال التعرف على المرسل والمتلقي والمقام الذي تصاغ فيه الرسالة، وذلك على النحو التالي:

أولًا: المرسِل: وهو صاحب القصيدة إبراهيم بن مسعود بن سعد، "أبو إسحاق التجيبي الإلبيري، شاعر أندلسي أصله من أهل حصن العقاب. اشتهر بغرناطة وأنكر على ملكها كونه استوزر ابن نغزلة اليهودي فنفي إلى إلبيرية، وقال شعرًا في ذلك، فثارت صنهاجة على اليهودي وقتلوه ... وشعره كله حكم ومواعظ"[(١)]، وهذا النص الذي ذكره الزركلي، على قصره، يدل دلالة واضحة على مفتاح شخصية الإلبيري، فهو ناصح قد تمرس على النصح.

ثانيًا: المتلقي: ابنه أبو بكر.

(١) خير الدين الزركلي، الأعلام.. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م، جـ١، صـ ٧٣، ٧٤.

ومن خلال ذلك يتضح أن الخطاب يمثل أو يجسد نوعًا من السلطة الأبوية التي يمارسها الأب مما قد يجعل الأمر ثقيلًا على نفس المرسل إليه في كثير من الأحيان؛ لذلك يحاول المرسِل إعادة تشكيل هذه العلاقة.

ثالثًا: المقام: والمقام هنا مقام نصح ووعظ وإرشاد وتوجيه، ومقام النصح غالبًا ما يكون فيه المتلقي موضوعًا موضعَ الغافل المقصر فيما يجب عليه، والمستقبل الذي عنده نوع من غفلة وتأخر يُدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر، والنهي المقرون بالترغيب والترهيب(١).

ومقام النصح يستوجب إزالة الحواجز بين الناصح والمنصوح، ورفع جوانب السلطة بينهما، فالانتقال من الوضع الحقيقي للعلاقة بين المرسل والمتلقي يجعل الخطاب ناجحًا. والإلبيري في تائيته ينتهج مثل هذا النهج، فيحاول صياغة هوية جديدة بينه وبين المتلقي غير الأبوة تسمح له بتقديم خطاب النصح بشكل أكثر نجاحًا وإقناعًا. وقد اتخذ الإلبيري عدة وسائل في تشكيل تلك الهوية الجديدة. ويمكن تناول هذه الوسائل على النحو التالي:

أولًا: العنوان ودوره في صياغة الهوية:

كان الإلبيري حريصًا منذ البداية على إعادة تشكيل الهوية أو إعادة صياغة العلاقة مع ابنه، وذلك عن طريق وأد العلاقة السلطوية وإنشاء علاقة صداقة أو مودة. وقد اتضح ذلك تمام الوضوح منذ العنوان "وصية ناصح"، فهو تركيب إضافي مكون من كلمة "وصية" وكلمة "ناصح"، وأما الوصية فهي كما يقول ابن منظور: "ما أوصيت به، وسميت

(١) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي.. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، إفريقيا الشرق، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م، صـ ٤٣، ٤٤.

وصية لاتصالها بأمر الميت"[١]، ولعل اختيار الإلبيري كلمة "وصية" من بين الكلمات التي قد تؤدي الغرض المراد نفسه مثل (نصيحة/ عظة/ توجيه...) كان يهدف إلى إزالة الجانب السلطوي مع بقاء الجانب الإلزامي، فإن المُوصِي في حكم الميت، والميت منزوع السلطة، وتكتسب الوصية قوتها من حث الشرع على إنفاذها والعمل بها.

وأما كلمة "ناصح" فقد جاء بها نكرة؛ لكي لا تحدد مكانة ذلك الناصح ولا سلطته، فكأنه ناصح لا علاقة له بالمنصوح، كما أن مجيئها نكرة تجعل بؤرة الاهتمام على فعل النصح دون القائم به، ومعلوم أن النصيحة تصدر من الأب والأخ والصديق والزميل وقد تصدر من شخص لا يعرف المنصوح وإنما رق لحاله، وطمس العلاقة أو إزالتها هي الخطوة الأولى في صياغة هوية جديدة.

ثانيًا: الضمائر ودورها في صياغة الهوية:

"ينظر اللغوي لاختيار الضمير بوصفه كاشفًا عن معلومات حول المتكلم (مقاربة لغوية اجتماعية)، أو بوصفه اختيارًا مقصودًا من المتكلم (مقاربة تداولية)"[٢]، وما يهم هنا هو الثاني؛ حيث إن الإلبيري جعل قافية قصيدته التاء، وهي في واقع الأمر "تاء" المخاطب في كل القصيدة، عدا سبعة أبيات من إجمالي عدد أبيات القصيدة الذي يبلغ مئة وخمسة عشر بيتًا، هذا بالإضافة إلى "أنت" و"كاف" المخاطب أو الخطاب، وتتمتع القصيدة بعدد كبير منهما أيضًا.

---

(١) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي)، لسان العرب، تحقيق: اليازجي وآخرون، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ، مادة "وصي"، جـ١٥، صـ ٣٩٤.

(٢) ميشيل دوريتشر دون، الديمقراطية في الخطاب السياسي المصري المعاصر، ترجمة/ عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، صـ ٧٠.

ومن المعروف أن ضمير المخاطب المفرد (أنت)، وما تفرع عنه في الحالات الإعرابية المختلفة منفصلًا كان أم متصلًا، لا يقف استعماله في السياق عند الإحالة على المرجع فقط، بل يتجاوز ذلك فيصبح مؤشرًا على غرض تداولي؛ حيث يشير (أنت) خاصة إلى أن المشارك في الخطاب – وهو هنا الابن – يعد نفسه ذا علاقة حميمية من الناحية الاجتماعية(١)، هذا بالإضافة إلى أن تكرارها بهذه الكثافة توحي بشدة الاهتمام والحرص من قِبل المرسِل على المرسل إليه، وبذل كل ما يمكن من طاقة من أجل إيصال النصيحة وإسقاطها عليه، فهو يخصه بالخطاب دون غيره لينبهه على أهمية هذا الخطاب.

كما أن ضمير المخاطب مناسب لمقام النصح؛ حيث إنه يستحضر المنصوح أمام الناصح وهو ما يوحي بالقرب بينهما، "فضمائر الحضور تدل على أن المشارك في عملية التلفظ يطابق المشارك في أحداث القول"(٢)، وهذا ما لا تفيده ضمائر الغيبة، ومقام النصح مقام مشاركة.

ثالثًا: الكنية ودورها في صياغة الهوية:

من المعلوم أن "الكنية عند العرب يقصد بها التعظيم"(٣)؛ لذلك تستخدم دائمًا من الأدنى إلى الأعلى، أو ممن هو في نفس المنزلة على سبيل التكريم والاحترام أو غير ذلك، لكنَّ الإلبيري قد وظف الكنية لغرض آخر وهو إزالة الحاجز الأبوي الذي يعوق وصول النصيحة، فالإلبيري قد استخدم الكنية في قوله:

---

(١) انظر، عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب، صـ ٢٨٨.

(٢) عز الدين المجدوب، مساهمة في دراسة المشيرات المقامية في القرآن، ضمن كتاب "التداوليات وتحليل الخطاب.. بحوث محكمة"، دار كنوز المعرفة، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، صـ ١٨٥.

(٣) فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، جـ١، صـ ٧١.

أبا بكرٍ دعوْتُكَ لو أَجَبْتَا * إلى ما فِيه حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتَا**[1].

والغرض من هذا الاستخدام هو رفع مكانة المرسل إليه حتى يصبح في قوة المرسِل، ومن ثم تطيب نفسه إلى سماع النصيحة؛ إذ هي ليست داخلة في نطاق الأمر والفرض، بل هي داخلة في نطاق الحب والود والخوف، ولم يكن ذلك ليحدث إلا من خلال رفع مكانة المرسل إليه ليكون في موضع ندية مع المرسِل.

وقد أحسن الإلبيري عندما قدم استخدام الكنية قبل الشروع في توجيه النصائح وصياغتها، فقد وضعها في مفتتح القصيدة في البيت السادس؛ حتي يزيل الحاجز منذ البداية، وهذا ما يلائم مقام النصيحة. كما أعاد ذكرها مرة أخرى تذكيرًا له بتلك المكانة القريبة في البيت الثامن والثمانين أي عند الاقتراب من الانتهاء من قصيدة النصح وهو ما يوحي برغبة الإلبيري في تأكيد هذه الهوية الجديدة في بداية النصح ونهايته، وأنه لم يحد عن علاقته التي أنشأها منذ البداية.

رابعًا: النداء ودوره في صياغة الهوية:

تتعدد أشكال النداء في العربية حسب علاقة المرسل بالمرسل إليه والمقام الجامع بينهما، فحروف النداء خمسة: "الهمزة للأقرب وأي للقريب وأيا وهيا للبعيد، ويا تعم الجميع لكثرة استعمالها"[2]، وقد يحذف حرف النداء لغرض من الأغراض التداولية. وقد حذف الإلبيري أداة النداء محاولة لتقريب المنادى منه "فكأن المنادي لا يحتاج إلى واسطة

(١) أبو إسحاق الإلبيري، وصية ناصح، تحقيق/ مركز السنة للبحث العلمي، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠١٤م، صـ ٢١.

(٢) ابن كمال باشا، أسرار النحو، تحقيق/ أحمد حسن حامد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢، صـ ١٢١.

لندائه، ولو كان حرف نداء"[١]. وقد وظف الإلبيري حذف حرف النداء في صياغة هوية جديدة بينه وبين ابنه تعطيه مكانة أقرب من مكانته؛ وهذا ما يجعل خطاب النصح مقبولًا من المرسل إليه؛ إذ تُمحى في الهوية الجديدة علاقة السلطة لتنشأ علاقة جديدة أشد حميمية. وهذا ما قام به حذف حرف النداء.

وقد حذف الإلبيري حرف النداء في موضعين من قصيدته، وكلا الموضعين استخدم فيهما الكنية، ولكن الموضع الأول كان في مقام الدعوة إلى قبول النصيحة، كما ورد في البيت سابق الذكر.

والموضع الثاني في مقام الاعتراف بعيوبه، محاولًا التقرب من المرسل إليه وإشعاره بمشاركته إياه في الحاجة إلى النصيحة؛ وذلك لتلبسه بعيوب يجدر به أن يتخلى عنها وقد كشفها – مجازًا – المرسل إليه، وذلك حيث يقول:

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَ عَيْبِي * وَأَكْثَـرُه وِمُعْظَمُهُ سَتَرْتَا**[٢]

ولا شك أيضًا أن النداء يؤدي دورًا تنبيهيًا يلجأ إليه الناصح؛ رغبة في لفت انتباه المنصوح قبل تقديم النصيحة لعله يصغي إليها وينتفع بها.

(١) فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، جـ٤، صـ ٣٢٥.

(٢) أبو إسحاق الإلبيري، وصية ناصح، صـ ٤١.

المبحث الثاني

المقام وصياغة معجم المرسِل في خطاب النصح

وضع الإلبيري قارئه أمام عمل وجداني انفعالي في المقام الأول، فمقام القصيدة هو مقام النصح والإرشاد والتوجيه، وتربط علاقة الأبوة بين المرسِل والمرسل إليه. والواقع أن العلاقة بين اللفظ والحالة الشعورية قوية في الشعر الوجداني(١). والانفعالية كما يقول ڤندريس: "تعبر عن نفسها على وجه العموم بصورتين: باختيار الكلمات وبالمكان الذي يخصص لها في الجملة، يعني أن معينَيْ اللغة الانفعالية الأساسيين هما المفردات والتنظيم"(٢). وما تعنى به الدراسة في هذا المبحث هو المفردات؛ حيث تتشكل المفردات الانفعالية في خطاب النصح من خلال مجموعتين رئيستين من الألفاظ أو معجمين رئيسين هما: معجم ألفاظ الترغيب، ومعجم ألفاظ الترهيب. وهما المحوران اللذَان يقوم عليهما النصح. ويدخل ضمن ألفاظ معجم الترغيب كل الألفاظ ذات الدلالة الإيجابية، كما يدخل ضمن معجم الترهيب كل الألفاظ ذات الدلالة السلبية. ويمكن تناولهما على النحو التالي(٣):

أولًا: معجم ألفاظ الترغيب:

ويتناول هذا المعجم كل الألفاظ التي توحي بدلالة إيجابية يمكن من خلالها استمالة المتلقي وترغيبه تارة، أو تزهيده فيها من أجل ما هو أفضل منها تارة أخرى، وقد اجتهد

---

(١) انظر: محمود علي عبد المعطي، التشكيل الفني وأبعاده الجمالية في رائية التهامي "يا كوكبًا ما كان أقصر عمره" مجلة جذور، العدد ٤٠، إبريل ٢٠١٥م، صـ ٢٤٩.

(٢) ڤندريس، اللغة، ترجمة/ عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، المركز القومي للترجمة، القاهرة، د.ط، ٢٠١٤م، صـ ١٨٦.

(٣) تقتصر الدراسة على ذكر بعض الألفاظ للتدليل على وجود ألفاظ دالة على الترغيب وأخرى دالة على الترهيب؛ إذ الألفاظ كثيرة وحصرها يحتاج إلى عمل ضخم، وليس مجرد بحث.

الإلبيري في اختار ألفاظه حتى تخرج متلائمة مع غرضه، فأتت القصيدة بكثير من ألفاظ التي تحمل دلالة الترغيب. ولا شك أن كل كلمة من هذه الكلمات جاءت في سياق الترغيب والحث على اقتناص الخير والظفر به، ويمكن عرض نماذج من هذه الألفاظ على النحو التالي:

١. **مطاع:** أتت هذه الكلمة في البيت السابع، في قوله:

"أبا بكر دعوتك لو أجبتا * إلى ما فيه حظك لو عقلتا**

إلى علم تكون به إمامًا * مطاعًا إن نهيت وإن أمرتا"**

والمقام هنا مقام ترغيب في أنه سيكون بالعلم مسموع الكلمة مطاعًا عندما يأمر وعندما ينهى، وهذه منزلة رفيعة تميل إليها النفوس وترغب في أن تصل إليها؛ لما فيها من العز والمكانة والشرف والمنزلة.

٢. **نفع:** أتت هذه الكلمة في البيت العاشر، عند الحديث عن فضل العلم؛ حيث قال:

ينالك نفعه ما دمتَ حيًّا * ويبقى ذكره لك إن ذهبتا**

والمقام هنا مقام ترغيب في اكتساب العلم؛ نظرًا لثمرته التي تكفل للإنسان ما يريده من خيري الدنيا والآخرة، فالإنسان يرجو نفع الدنيا، والعلم سبيل إليه؛ إذ يكتب لصاحبه المكانة بين الناس والمنزلة عند الأمراء، والعطايا عند الخلفاء وغيرهم من علية القوم. ثم إن نفعه يمتد بعد الموت، فيبقى خالد الذكر محمود السيرة، وهو أمر عظيم عندهم، يبذلون من أجله كل نفيس.

٣. **الكواكب:** أتت هذه الكلمة في البيت التاسع والثلاثون، عند مقارنة حاله بحال الغني، فقال:

لئن جلس الغني على الحشايا * لأنت على الكواكب قد جلستا**

فالمقام هنا مقام مقارنة بين مكاسب الغني ومنزلته من ناحية ومنزلة صاحب العلم من ناحية أخرى، وفيه تفضيل بينٌ لصاحب العلم الذي جعل مكانه فوق النجوم، ليس كالغني الذي يجلس فوق وفراش محشو. والمقارنة وسيلة مهمة في عملية الترغيب؛ إذ تظهر المفارقة بين المنزلتين، وتبين أيهما أحق بالسعي إليها.

ثانيًا: معجم ألفاظ الترهيب:

ويتناول هذا المعجم كل الألفاظ التي توحي بدلالة سلبية يمكن من خلالها ترهيب المرسل إليه وتحذيره، وقد اجتهد الإلبيري في اختار ألفاظه حتى تخرج متلائمة مع غرضه في التحذير، فأتت القصيدة بكثير من ألفاظ الترهيب. ويمكن عرض نماذج من هذه الألفاظ على النحو التالي:

١. **المنون:** جاءت هذه الكلمة في البيت الثاني في قوله:

وتدعوك المنونُ دعاء صدق * ألا يا صاحِ أنت أريد أنتا**

فقد استخدم الإلبيري كلمة "المنون" التي تعني الموت؛ للتخويف والترهيب، فالموت يأتي بلا إنذار أو مقدمات، كما أنه عندما يأتي لا ينفع حينئذٍ شيء إلا العمل الصالح، ومنه العلم النافع. وهذا التخويف مقدمة لذكر طريق النجاة فيما بعد وهو سلوك سبيل العلم، كما أن التخويف من الموت ليس تخويفًا منه في ذاته، بل يتضمن الترهيب مما بعد الموت من سؤال وحساب وجزاء، وهو ما استدعى بعض الألفاظ المتعلقة بعذاب الآخرة، مثل: جهنم، وذلك في قوله في البيت الخامس والثمانين:

تفر من الهجير وتتقيه * فهلا من جهنم قد فررتا**

فذكر جهنم هنا فيه استحضار لألوان العذاب الأخروي التي يجب على الإنسان أن يفر منها وأن يعمل فيه دنياه ما يضمن له اجتنابها. ولا شك أن لفظ "جهنم" يحمل دلالة ترهيب أيضًا، تكمل مشهد التخويف مع غيرها من الكلمات المتعلقة بالموت والعذاب.

٢. **نوقشت الحساب:** جاء هذا التعبير في البيت الواحد والثمانين:

ولو وافيت ربك دون ذنبٍ * ونُوقشت الحساب إذًا هلكتَا**

ويعد هذا التعبير استكمالًا للتخويف والترهيب من الدار الآخرة، وذلك بذكر مشهد من مشاهدها، وقد عمد إلى حديث النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم: "مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّب"(١)، فضمنه في البيت؛ للتأكيد على هول هذا اليوم، وأنه حقيق بأن يعمل له الإنسان قبل أن يقف هذا الموقف.

٣. **الضراغم والسبنتا:** جاءت الكلمتان في البيت الأول بعد المائة:

فخف أبناء جنسك واخش منهم * كما تخشى الضراغم والسبنتا**

أراد الإلبيري أن يحذر ابنه من أصدقاء السوء، وأنه يخوفه من أفعالهم، فأمره أن يخشاهم كما يخشى الضراغم والسبنتى، والضراغم هي الأسود، يقول ابن منظور (ت ٧١١ هـ): "الضَّرْغَمُ والضِّرْغامُ والضِّرْغامةُ: الأَسد. وَرَجُلٌ ضِرْغامةٌ: شُجاعٌ، فَإِمَّا أَن يَكُونَ شُبِّه بالأَسد، وإِما أَن يَكُونَ ذَلِكَ أَصلًا فِيهِ"(٢)، أما السبنتى فهو النمر، يقول ابن منظور: "السَّبَنْتَى والسَّبَنْدَى: الجَرِيء المُقْدِم مِن كُلِّ شَيْءٍ، وَالْيَاءُ للإِلحاق لَا للتأْنيث، أَلا تَرَى أَن الْهَاءَ تَلْحَقُهُ وَالتَّنْوِينُ، وَيُقَالُ: سَبَنْتاة وسَبَنْداة... والسَّبَنْتَى: النَّمِرُ، ويُشْبِهُ أَن يكونَ سُمِّيَ بِهِ لجُرْأَتِه؛ وَقِيلَ: السَّبَنْتَى الأَسَدُ"(٣). ولا شك أن هذه الحيوانات تمثل مصدر خوف وقلق.

ومن خلال هذين المعجمين اللغويين (الترغيب – الترهيب) استطاع الإلبيري صياغة نموذج النصح وجعله متلائمًا بألفاظه مع غرضه الذي وضع من أجله قصيدته.

---

(١) البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل)، الصحيح، دار الحديث، القاهرة، د. ط، ٢٠٠٤م، كتاب الرقاق، باب: من نوقش الحساب عذب، رقم الحديث: ٦٥٣٦، جـ ٤، صـ ٢٢٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة "ضرغم"، جـ ١٢، صـ ٣٥٧.

(٣) السابق، مادة "سبت"، جـ ٢، صـ ٣٩.

المبحث الثالث

الإستراتيجيات التوجيهية في خطاب النصح

خطاب النصح خطاب توجيهي في المقام الأول. والتوجيهية Directive – كما يقول سيرل – هي "محاولة حمل المستمع على أن يسلك بطريقة تجعل سلوكه يضاهي المحتوى القضوي للتوجيه"(١)، و"يدخل في هذا الصنف الأمر، والنصح، والاستعطاف، والتشجيع"(٢)، والدعاء، وغير ذلك. ولا شك "أن الخطاب ذا الإستراتيجية التوجيهية يعد ضغطًا وتدخلًا، ولو بدرجات متفاوتة، على المرسل إليه، وتوجيهه لفعل مستقبلي معين. وهذا هو سبب تجاوز المرسل لتهذيب الخطاب، من خلال استعمال بعض الأساليب والأدوات اللغوية التي لا تتضمن بطبيعتها ذلك؛ فتهذيب الخطاب يأتي في المقام التالي، في حين يتقدمه مرتبة تبليغ المحتوى"(٣).

وخطاب النصح الإلبيري يشتمل على كثير من الإستراتيجيات التوجيهية الملائمة للغرض والغاية التي وضعت من أجله، فخطاب النصح عادة ما يكون من خلال الأمر بمنفعة والحث عليها والترغيب فيها أو النهي عن مضرة والتحذير منها. ويمكن تناول إستراتيجيات النصح الإلبيرية على النحو التالي:

---

(١) جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع.. الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة/ صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، صـ ١٨٣.

(٢) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، صـ ٥٢.

(٣) عبد الهادي الشهري، إستراتيجيات الخطاب، صـ ٣٢٢، ٣٢٣.

أولًا: الأمـــر:

عرف أبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨هـ) الأمر بقوله: "استدعاء الفعلِ بالقول ممن هو دونه على سبيل الوجوب"[١]، وهذا التعريف يتلاءم مع الاتجاه التداولي الذي يهتم بدراسة اللغة في الاستعمال أي باعتبار أطراف الحديث ومقام التحدث بينهما؛ حيث ينظر إلى رتبة المرسِل والمتلقي، فالمرسِل له جهة الاستعلاء، أما المتلقي فأقل في الرتبة. وهذا ما يتعارض في ظاهره مع محاولة الإلبيري لإنشاء هوية جديدة غير هوية السلطة الأبوية، ولكن استعمال الأمر أحيانًا في غير طلب الاستعلاء لأغراض بلاغية متنوعة[٢] جعل الإلبيري يحتفظ بهويته الجديدة التي وضعها في مقام النصح.

ولعل الإلبيري كان على وعي بأن استخدام صيغة الأمر يهدد هويته الجديدة التي هي تحت الإنشاء والتأسيس؛ فلم يبدأ في استخدام الإستراتيجية الأمرية في النصح إلا بعد أن أرسى معالم هويته تلك. فأول استخدام لصيغة الأمر في تائية الإلبيري كان في البيت الثامن عشر، وهو قوله في التزام العلم والأخذ به:

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالجِدِ فِيهِ * فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا**

ويسبق هذا البيت اثنا عشر بيتًا في مدح العلم وبيان فضله ومنزلته بداية من البيت السادس حتى يصل إلى البيت محل الشاهد، وهذا ما يجعل من صيغة الأمر تخرج هنا من قوة الإلزام التي تناقض الهوية الجديدة إلى قوة الالتماس والنصح والإرشاد والإغراء التي تتفق ومقامَ القصيدة.

---

(١) أبو المعالي الجويني، متن الورقات، تحقيق/ أبو أنس أشرف بن يوسف، دار العقيدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، صـ ١٣.

(٢) انظر: عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، جـ٢، صـ ٢٦٩.

والتمهيد لصيغة الأمر لم يكن في هذا البيت فقط، وإنما هو ديدن الإلبيري في قصيدته. فالموضع الثاني لصيغة الأمر في القصيدة أتى في البيت الحادي والثلاثين، وهو قوله:

فَرَاجِعْهَا وَدَعْ عَنْكَ الهُوَيْنَا * فَمَا بِالبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا**

فقد قدم الإلبيري بين يدي هذا البيت عشرة أبيات نصح وإرشاد وتوجيه في لين وتشتمل على تلك الكلمات التي يحثه على مراجعتها والأخذ بها والعمل وفق توجيهها.

ثم تأتي صيغة الأمر في البيت الرابع والأربعين لتحثه على قبول النصيحة والتخويف من عاقبة تركها، وذلك قوله:

فَقَابِلْ بِالقُبُولِ لِنُصْحِ قَوْلِي * فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا**

وهذا يوحي بأن أمره ليس أمر استعلاء وإنما هو أمر نصحٍ ورشاد، وخوف من مغبات الأمور.

ثم تتوالى سلسلة من الأوامر بداية من البيت الثامن والخمسين إلى البيت الثاني والستين على النحو التالي:

وَسَلْ مِنْ رَبِكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا * وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا**

وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا * بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ ابْنُ مَتَّى**

وَلَازِمْ بَابَهُ قَرْعًا عَسَاهُ * سَيَفْتَحُ بَابَهُ لَكَ إِنْ ذَكَرْتَا**

وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا * لِتُذْكَرَ فِي السَمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا**

وَلَا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ * وَنَكِّرْ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا**

والملاحظ أن "الأمر" في الأبيات قد اكتسب قوة أكبر من ذي قبل، وهذه القوة في ذاتها لا في هوية العلاقة بين المرسل والمتلقي، ولعل السبب في هذه القوة الأمرية هو

أن الأمر هنا خرج موافقًا لأمر آخر هو الأمر الديني الذي يلزمنا بالاستعانة بالله وطلب التوفيق منه وملازمة بابه والإكثار من ذكره وغير ذلك.

ثم ينتقل الإلبيري إلى غرض آخر من الأغراض المتضمنة في صيغة الأمر يبني به الهوية الجديدة بين المرسِل والمرسل إليه أو يقويها ويدعمها، وذلك من خلال تحقير الذات وإنزالها عن مكانتها لتلتقي مع مكانة المرسل إليه، وذلك من خلال البيتين: الثالث والستين:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى * بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعَلِكَ قَدْ نَظَرْتَا**

والتاسع والثمانين:

فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ المَخَازِي * وَضَاعِفْهَا فَإِنَكَ قَدْ صَدَقْتَا**

ثم يستخدم صيغة الأمر في التخويف أو التهديد المستتر في الخوف والشفقة والرحمة من وحوش جنسه وثعالبهم، وذلك في قوله في البيتين الأول والثاني بعد المئة:

فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ واخْشَ مِنْهُمْ * كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ والسَّبَنْتَا**

وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُمْ حِذَارًا * وِكُنْ كَالسَّامِرِي إِذَا لُمِسْتَا**

وصيغة الأمر ذات قوة إنجازية متلائمة مع التخويف والتهديد والتحذير، كما أن الإباحة في البيت الثاني منهما قائمة على الحذر والريبة كذلك.

ثم يختتم الإلبيري استخدامه لـ "الأمر" في البيت الحادي عشر بعد المئة بالتماس تظهر فيه كلمة "النصائح" مقدمة تليها صيغة الأمر ليحافظ على علاقته الجديدة مع المرسل إليه، فيقول:

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا * حَيَاتَكَ فَهْيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا**

وقد أكثر الإلبيري من استخدام صيغة الأمر على وزن "فَاعِلْ" نحو: (وَاظِب/ رَاجِع/ قَابِل/ نَادِ/ لَازِم/ ضَاعِف/ خَالِط/ زَايل)، وهي من الفعل الرباعي الذي ماضيه على وزن "فَاعَلَ"، وهذه الصيغة من الفعل الرباعي تدل على الموالاة والمتابعة أو التكثير(١)، وهو ما يلائم مقام النصح؛ فإن الناصح يريد لمنصوحه ملازمة ما يقدمه له من نصائح ومتابعتها والإكثار من فعلها، وهذا ما تحققه صيغة الأمر الرباعي "فَاعِلْ". كما استخدم الإلبيري صيغة الأمر على وزن "فَعِّلْ" نحو: (نَكِّرْ/ غَرِّبْ/ شَرِّقْ)، وهي من الفعل الرباعي الذي ماضيه على وزن "فَعَّلَ"، وهذه الصيغة تدل على "التكثير في الفعل"(٢)، وهو ما يتفق مع مقام النصح والإرشاد.

ثانيًا: الـنـهـي:

وقد عرف الجويني النهي بقوله: "والنهي استدعاء الترك بالقول ممن هو دونه على سبيل الوجوب، ويدل على فساد المنهي عنه"(٣). و"يستعمل في غير طلب الكف أو الترك كالتهديد"(٤) وغيره، وهذا التعريف يتوافق مع الفكر التداولي الذي يراعي عناصر الاتصال اللغوي، وهذا ما يجعل النهي لا يهدم هوية العلاقة الجديدة بين المرسل والمرسل إليه؛ إذ الأغراض الأخرى تقتضي تغيرًا في أحوال العناصر المكونة للخطاب، وهو ما يمكن من خلاله التخلي عن شرط الاستعلاء في مقابل الدونية.

والملاحظ أن الإلبيري جعل أسلوب النهي مقترنًا بأسلوب الأمر دائمًا تابعًا له في أغلب الأحيان، وهذا ما يتفق مع مقام النصح؛ حيث إن النصح قائم على طلب فعل

(١) انظر، أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، تحقيق/ أحمد أحمد شتيوي، دار الغد الجديد، المنصورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، صـ ٣٨.

(٢) المرجع السابق، صـ ٣٩.

(٣) أبو المعالي الجويني، متن الورقات، صـ ١٥.

(٤) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح، جـ٢، صـ ٢٧٢.

الخير وترك الشر والضرر. وجاء تأخير النهي عن الأمر؛ لأن النهي ذو قوة أكبر من الأمر. فالأمر بأداء الفعل أقل درجة من الأمر بالترك. كما أن نسبة النهي في تائية الإلبيري أقل من نسبة الأمر مراعاةً لمقام النصح، وحفاظًا على الهوية الجديدة التي أنشأها الإلبيري بين المرسل والمرسل إليه.

وكان أول ما أتى النهي في البيت العشرين، أي بعد أول ورود لصيغة الأمر ببيتين، وكان الغرض من ذلك النهي هو التخويف؛ حيث يقول:

فَلَا تَأْمَنْ سُـؤَالَ اللهِ عَنْهُ * بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا؟**

ويقوم الإلبيري، من أجل التخفيف من قوة النهي التي تتطلب اختلاف الرتبة بين المرسل والمرسل إليه، بذكر سبب النهي والتعليل له. فَيُتْبِعُ البيت السابق معللًا نهيه عن الأمن بقوله:

فَرَأْسُ العِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا * وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ: لَقَدْ رَأَسْتَا**

وقد يجعل التعليل في الشطر الثاني من البيت ذاته، كما في قوله في البيت الثاني والثلاثين، حيث يقول:

وَلَا تَخْتَلْ بِمَالِكَ والْهَ عَنْهُ * فَلَيْسَ المَالُ إِلَّا مَا عَلِمْتَا**

يريد بـ "ما علمتا" أنه صائر إلى الزوال ولا يبقى إلا صالح الأعمال، وأفاد أسلوب القصر في الشطر الثاني الحصر، وقوله "ما علمتا" دون ذكر معموله يعكس ثقته في معرفة المتلقي، وهذا أيضًا يدعم الهوية الجديدة التي يؤسس لها.

ومثله قوله في البيت الحادي والتسعين:

فَلا تَرْضَ المَعَايبَ فَهْوَ عَارٌ * عَظِيمٌ يُورِثُ المَحْبُوبَ مَقْتَا**

أي لا ترض المعايب، ثم يأتي بالتعليل، وهو أنها عار، ويصفه بالعظيم ليضخمه، ثم يكشف بالمتضادين "المحبوب" و"مقتًا" عن التحول من حال إلى حال، نتيجة للرضى بهذا العار الذي هو "المعايب".

وكذلك قوله في البيت الخامس بعد المئة:

وَلَا تَلْبَثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ * يُمِيتُ الْقَلْبَ إِلَّا إِنْ كُبِلْتَا**

أي لا تلبث بحي فيه ظلم، ثم ذكر العلة من نهييه عن ذلك، وهي أن ذلك يميت القلب وينزعه.

وقد يُورد النهي ثم يعقبه بذكر ما سيؤول إليه الأمر إذا لم يلتزم بترك ما نهاه عنه، وهو نوع من التعليل، وذلك مثل قوله في البيت السادس والخمسين:

وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا * فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا**

كما أنه قد يضع بعد نهيه صورة من الواقع تكون داعية لقبول هذا النهي وبرهانًا على صحة ما يقول، ومن ذلك قوله في البيت الثاني والستين:

وَلَا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ ××× وَنَكِّرْ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا

وبهذه الوسائل (التعليل/ ذكر الواقع/ استشراف المستقبل) استطاع الإلبيري أن يخفف من قوة النهي؛ ليجعله ملائمًا لخطاب النصح.

ثالثًا: الاستفهام:

وهو عند النحاة كما يقول الجرجاني (٨١٦ هـ): "استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين

الشيئين، أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور"[١]، أو "طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل، وذلك بأداة من إحدى أدواته"[٢]، ويخرج أسلوب الاستفهام عن هذا المعنى النحوي الأصلي إلى معانٍ بلاغية[٣]، ذات أغراض تداولية أخرى يفرضها سياق الاستعمال ومقامه.

وقد استخدم الإلبيري أسلوب الاستفهام استخدامًا تداوليًا بعيدًا عن معناه الأصلي، الذي لا يعتمده السياق، ومن هذه الأغراض التعجب المحفوف بالتقريع والإنكار كما في البيت الخامس:

فَكَمْ ذا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى * مَتَى لَا تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى**

وهذا البيت يشتمل على أسلوبين من أساليب الاستفهام، الأول قوله: "فَكَمْ ذا أَنْتَ مَخْدُوعٌ" على اعتبار "كم" استفهامية وقد عطف عليها أسلوب استفهام آخر، وهذا الاستفهام الغرض منه التعجب والإنكار من شدة غفلة المنصوح[٤]. أما الأسلوب الاستفهامي الثاني فهو قوله: "حَتَّى مَتَى لَا تَرْعَوِي عَنْهَا" والغرض منه الاستنكار؛ حيث ينكر عليه حب الدنيا وعدم الكف عن الاغترار بها والانخداع بزينتها.

كما استخدم الإلبيري الاستفهام في التعجب والإنكار في آنٍ واحد أيضًا في البيت الثامن والأربعين، وذلك قوله:

---

(١) الجرجاني (علي بن محمد بن علي الزين الشريف)، كتاب التعريفات، تحقيق: فريق بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت،
الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، صـ ١٨.
(٢) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، تحقيق/ حسن نجار محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠١١م، صـ ٦٧.
(٣) انظر: المرجع السابق، صـ ٧٢: ٧٤.
(٤) إذا كانت "كم" خبرية فهي خارج هذه الإستراتيجية التوجيهية.

سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ * فَكَيْفَ تُحِبُ مَا فِيهِ سُجِنْتَا؟!**

فالإلبيري يتعجب من حب المنصوح للدنيا وهي سجن له، وينكر عليه في الوقت ذاته ذلك الحب ويستنكره منه؛ لأنه أمر يخالف العقل والفطرة الإنسانية، فالإنسان لا يمكنه أن يحب سجنه وقيده.

ويستخدم الإلبيري أسلوب الاستفهام بغرض التعجب والاستنكار أيضًا في البيت السادس والستين، وهو قوله:

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلًا * فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا**

فهو يتعجب من انتكاثته هو بعد كبر سنه، وينكر على نفسه ذلك، وما جعله حقيق بالتعجب والإنكار أنه كان في صباه على سبيل هدى ورشاد، وهو يوبخ نفسه هنا حتى يزيل ثقل النصيحة من قلب ابنه.

كما استخدم الإلبيري أسلوب الاستفهام؛ مستدعيًا مقام السؤال يوم القيامة بغرض التوبيخ، ووضعه في المقام العام وهو مقام النصح للتحذير والتخويف. فالإلبيري صنع مقامًا داخل مقام النصح، وذلك قوله في البيت العشرين:

فَلَا تَأْمَنْ سُـؤَالَ اللهِ عَنْهُ * بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا؟**

وقد صرح الإلبيري بغرض الاستفهام قبل التلفظ به عن طريق ذكر كلمة "توبيخ"، وهذا هو الغرض من السؤال في مقام الحساب يوم القيامة، أما وجه ذكر الاستفهام في هذا السياق فهو التخويف والتهديد، وهو ما يتفق ومقامَ النصح الذي يحسن فيه الترغيب والترهيب.

وقد استخدم الإلبيري الاستفهام أيضًا بغرض التعجيز؛ حيث إنه إن أُسِر في ذنوبه فسيكون عاجزًا عن الفكاك منه، وذلك في البيت المئة، حيث يقول:

وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وِثَاقٍ * وَكَيْفَ لَكَ الْفِكَاكُ وَقَدْ أُسِرْتَا**

واستخدام أسلوب الاستفهام هنا يوجه المنصوح إلى الإقرار بعجزه، فهو استفهام تعجيزي تقريري في آن واحد والغرض من ذلك هو التخويف والترهيب من عاقبة الأمور، وهو ملائم لخطاب النصح الذي يقوم على إستراتيجية الترهيب في كثير من أحيانه.

المبحث الرابع

الإستراتيجيات الحجاجية في خطاب النصح

يحتاج خطاب النصح إلى الوسائل الحجاجية؛ فهو خطاب يهدف إلى إقناع المخاطب بما يقدمه المرسِل من نصائح. وقد ضمن الإلبيري تائيته الكثير من التقنيات الحجاجية الإقناعية؛ رغبة في التأثير في المنصوح وجعله أقرب إلى قبول النصيحة والعمل بها. ومن وسائل الإلبيري الحجاجية ما يلي:

أولًا: التعليل:

يعد ذكر العلة أمرًا ضروريًا في خطاب النصح؛ إذ تختص العلة بالدلالة على الشيء بالوجه الذي وجد به[1]، ومن ثمَّ يكون الخطاب أكثر إقناعًا ومقبولية عند وجودها. وقد لجأ الإلبيري إلى ذكر الأسباب والعلل كثيرًا من أجل تقوية خطابه النصحي، مستخدمًا "فاء" السببية دائمًا؛ للإشارة إلى التصاق تلك العلة بالخبر مما يجعلها آكد في القبول. ومن ذلك تعليله لقوله [الأبيات: ١٤، ١٥، ١٦]:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حُلْوَاهُ طَعْمًا * لآثَرْتَ التَّعَلُمَ وَاجْتَهَدتَّا**

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوىً مُطَاعًا * وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا**

وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ * وَلَا دُنْيَا بِزِينَتِهَا كَلِفْتَا**

بقوله في البيت السابع عشر:

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي * وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا**

---

(١) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، صـ ١٣٤.

فإنه يجتهد في التعلم ولا ينشغل بالدنيا وزخرفها وزينتها لأن أرواح المعاني هي قوت الروح الذي يشغله عن كل متاع الدنيا.

كما يعلل توبيخ الله له على علمه دون العمل به في قوله في البيت العشرين:

فَلَا تَأْمَنْ سُـؤَالَ اللهِ عَنْهُ * بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا؟**

بقوله في البيت الذي يليه:

فَرَأْسُ العِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا * وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ: لَقَدْ رَأَسْتَا**

فهو يعلل التوبيخ على العلم دون العمل بأن الغاية الحقيقية من العلم هي تقوى الله حقًا، ولا تأتي تلك التقوى إلا بالعمل.

وكذلك تعليله لنهيه ولده عن الحزن على ما فات من الدنيا في قوله في البيت الرابع والخمسين:

وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا * إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا**

بقوله في البيت الذي يليه:

فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا * مِنَ الفَانِي إِذَا البَاقِي حُرِمْتَا**

فإنه يعلل سبب نهيه عن الحزن على ما فات من الدنيا بأنه ما كان لينفعه ما ناله منها؛ لأنها أشياء فانية.

كما استخدم الإلبيري التعليل بـ "اللام" في موضع واحد، وهو قوله في البيت الحادي والستين:

وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا * لِتُذْكَرَ فِي السَمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا**

ولعل الإلبيري في هذا الموضع لم يكن بحاجة إلى التلطف في التعليل فاستخدم "اللام" ولم يستخدم "الفاء" لشرف الأمر الذي يدعوه إليه وشرف العلة التي يعلل بها طلبه.

ثانيًا: المقابلة:

وهي كما قال الباقلاني (ت ٤٠٣هـ): "أن يوفق بين معانٍ ونظائرها والمضاد بضده"(١)، أو كما قال الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ): "أن يُؤْتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلافَ التقابل"(٢).

وقد وظف الإلبيري المقابلة التي تقوم بدور حجاجي يهدف إلى الإقناع في مواضع متعددة من تائيته، ومن هذه المواضع قوله في البيت الثالث عشر:

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ * وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدتَّا**

فبين الشطرين مقابلة تؤكد على زيادة العلم في حال الإنفاق وانحصاره وقلته ونسيانه في حال منعه. وفيه رفعة لدرجة العلم عن المال الذي يقابله في هذه الصفات.

ومنه قوله في البيت السادس والعشرين:

وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ * وَتُوجَدُ إِن عَلِمْتَ وَلَوْ فُقِدتَّا**

فبين الشطرين مقابلة تُبرز الفرق بين مكانة العلم وموضع الجهل، وفيها دعوة إلى التحلي بالعلم الذي يكتب لصاحبه الذكر والوجود (المعنوي) عند الفقد الجسدي (الحسي).

ومنه قوله [الأبيات: ٤٤، ٤٥]:

---

(١) الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب)، إعجاز القرآن، تحقيق/ السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، ٢٠١٠م، صـ ٨٧.

(٢) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح، جـ٤، صـ ٥٨٠.

فَقَابِلْ بِالقُبُولِ لِنُصْحِ قَوْلِي * فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا**

وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا * وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا**

فبين قوله "إِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا"، والبيت التالي له مقابلة توضح الفرق بين الإعراض عن النصيحة والأخذ بها والعمل وفقها.

ومنه أيضًا قوله في البيت الخمسين:

وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَابًا * وَتُكْسَى إِنْ مَلَابِسَهَا خَلَعْتَا**

فبين الشطرين مقابلة تؤكد أن ثياب الدنيا فاضحة كاشفة، وفيها دعوة إلى التخلي عن التلبس بها والركون إليها.

وكل هذه المقابلات تقوم بدور حجاجي له أثر إقناعي إلى جانب كونها عملًا بديعيًا. فليس الغرض منه مجرد التناغم الصوتي والإيقاعي فحسب، بل الدور التداولي الحجاجي الإقناعي هو المنظور في المقام الأول.

ثالثًا: التبادل:

وهو كما يقول عبد الهادي الشهري: أن "يحاول المرسل بهذه الآلية أن يصف الحال نفسه في وضعين ينتميان إلى سياقين متقابلين، وذلك ببلورة علاقات متشابهة بين السياقات، كما يمكن أن تكون الحجج نقلًا لوجهة النظر بين المرسل والمرسل إليه"[١]، والفرق بين المقابلة والتبادل هو أن تقابل المقابلة يكون بين المعاني أما تقابل التبادل فيكون بين السياقات أو الأحوال أو المقامات. كما أن التقابل في المقابلة يعني التضاد، أما التقابل في التبادل فيعني الاختلاف، وليس تمام التضاد. ويمكن أن تأتي عملية التبادل في شكل ما يسمى "علاقة التفاضل البسيطة"، وهي تعني كما قال طه عبد

(١) عبد الهادي الشهري، إستراتيجيات الخطاب، صـ ٤٨٦.

الرحمن: "وجود أحد الشيئين في مرتبة تعلو على رتبة الآخر"[١]. ولا شك أن هذا النمط من الكلام يقوم بدور فعال في العملية الحجاجية الإقناعية. وقد انتبه عبد الهادي الشهري إلى أهميته في خطاب النصح، فقال: "ولذلك يكثر استعمال الحجاج بالتبادل في النصائح لإقناع المرسل بجدوى ما يذهب إليه"[٢].

وقد وظف الإلبيري تقنية التبادل في خطابه النصحي في مواضع متعددة منها قوله في البيت الثامن والثلاثين:

لَئِنْ رَفَعَ الغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ ××× لأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا

فالإلبيري يضع حالة الغني في رفع لواء المال في مقابل رفع لواء العلم بغرض التفرقة بينهما وبيان فضيلة لواء العلم على لواء المال التي يترتب عليها أفضلية حامل لواء العلم على حامل لواء المال.

ويستمر الإلبيري في استخدام هذه التقنية معددًا الأوصاف التي قد يتحلى بها الغني ويذكر ما يفوقها عند المنصوح إذا هو عمل بنصيحته، فيقول [الأبيات: ٣٩، ٤٠، ٤١]:

لَئِنْ جَلَسَ الغَنِيُّ عَلَى الحَشَايَا * لأَنْتَ عَلَى الكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا**

وَإِنْ رَكِبَ الجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ * لأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا**

وَمَهْمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الغَوَانِي * فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ افْتَضَضْتَا**

فالإلبيري يستخدم قاعدة المفاضلة من أجل التأثير على المرسل إليه (المنصوح) وترغيبه في العلم، وذلك من خلال تفضيل الحالة التي يكون عليها إذا ما التزم بالنصيحة وعمل بها.

---

(١) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، صـ ٢٨٢.

(٢) عبد الهادي الشهري، إستراتيجيات الخطاب، صـ ٤٨٦.

وقد استخدم الإلبيري تقنية التبادل من أجل التلطف والتقرب من المرسل إليه، وذلك من خلال جعل المرسل إليه يقوم بدور المرسل الذي يستخدم التبادل في مقارنة حاله أيام الشباب بحاله بعد الشيب، وذلك حين ينطقه بقوله في البيت السادس والستين:

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلًا * فَمَالَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا**

فإن الإلبيري جعل المرسل إليه يتحول إلى مرسِلٍ مستخدمًا خطابًا تقريعيًا؛ رغبة منه في تأكيد الهوية الجديدة التي وضعها بينه وبين المرسل إليه.

إن كان الإلبيري قد جعل المرسل إليه يقارن بين حالين مختلفين لشخص واحد فإنه قد جعله يقارن بينه وبين ناصحه في المقام ذاته، وهذه وسيلة للتودد للمنصوح لجعل الخطاب أكثر مقبولية، ومن ذلك قوله في البيت السابع والستين وما يليه:

وَهَا أَنَا لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الخَطَايَا * كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا**
وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أم دَفْرٍ * وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا**
وَلَمْ أَنْشَا بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ * وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا**
وَلَمْ أَحْلُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ * وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَانْتَهَكْتَا**

وقد استخدم الإلبيري التبادل بهدف الحث على ما هو أولى للمنصوح، وذلك في قوله في البيت الخامس والثمانين:

تَفِرُّ مِنَ الهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ * فَهَلَّا مِنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا**

فإن الإنسان الذي يفر من شدة الحر أولى به أن يفر من جهنم التي هي أشد حرًا، واستطاع الإلبيري من خلال هذا التبادل الذي أحدثه بذكر موقفين مختلفين الثاني منهما يقتضي نتيجة الأول من باب الأولى؛ لأن الحدث فيه أقوى. وهو توظيف حجاجي إقناعي بدرجة كبيرة.

كما استخدم الإلبيري التبادل لتوضيح أثر المعايب في مقابل أثر الطاعات، وذلك في قوله:

فَلَا تَرْضَ المَعَايبَ فَهْوَ عَارٌ * عَظِيمٌ يُورِثُ المَحْبُوبَ مَقْتَا**

وَتَـهْـوِى بِالْـوَجِـيـهِ مِنَ الثُّـرَيَّـا * وَيُـبْـدِلُـهُ مَـكَـانَ الفَـوْقِ تَـحْـتَـا**

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي * وَتَجْعَلُكَ القَرِيبَ وَإِنْ بَـعُدْتَّا**

وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا * وَتَلْقَى البِرَّ فِيهَا حَيْثُ شِئْتَا**

وبهذا التبادل المصحوب بعواقب الأمور يستطيع المرسِل الناصح أن يقنع المرسل إليه المنصوح بأن يجعل نفسه من أصحاب الطاعات لا المعايب.

رابعًا: الاستعارة:

الاستعارة تشبيه مكثف، حذف أحد طرفيه، يقصد بها إثارة خيال المتلقي لملاحقة المعاني الغائبة واستحضارها بالجلي الحسي؛ لأنها تعمل على إذابة العناصر بعضها في بعض، وخلق كائن لغوي جديد من أجل التأثير في المواقف(١).

ويقول عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ): "قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلًا، وأن المجاز أبدًا أبلغ من الحقيقة"(٢)، ويؤكد أن تلك المزية ليست ناتجة عن زيادة في المعنى وإنما عن زيادة في إثباته فيقول: "فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته، بل في

(١) عبد الجيل العشري، آليات الحجاج القرآني .. دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، صـ ٣٠٣.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق/ محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م، صـ ٧٠.

إيجابه والحكم به"[١]، ويفصل تلك المقولة بقوله: "وأما الاستعارة، فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة، أنك إذا قلت: «رأيت أسدًا»، كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة، حتى جعلته كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذي نُصب له دليل يقطع بوجوده"[٢].

ويذكر عبد الهادي الشهري الدور الحجاجي للاستعارة بقوله: "قد تعلو الاستعارة ألفاظ الحقيقة، وذلك لأنه لا يفضل المرسل استعمالها، إلا لثقته بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجيًا، وهذا ما يرجح تصنيفها ضمن أدوات السلم الحجاجي أيضًا، إذ تُعَرَّف الاستعارة الحجاجية بكونها تلك الاستعارة التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي، وهو ما يود المرسل تحقيقه"[٣]. فالاستعارة إذن "تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية"[٤].

وقد وظف الإلبيري الاستعارة في خطابه النصحي؛ رغبة منه في التأثير في المنصوح واستمالته، وإحداث تغيير في الموقف العاطفي خاصة لدى المتلقي. ولعل افتتاح الإلبيري تائيته بالاستعارة دليل واضح على أهميتها في خطاب النصح، ورغبته في التأثير في المنصوح وتغيير موقفه العاطفي؛ إذ يقول مخوفًا له ومحذرًا في البيتين الأول والثاني:

تَـفُـتُّ فُـؤَادَكَ الأَيَـامُ فَـتًّـا * وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا**

وَتَدْعُوكَ المَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ * أَلَا يَـا صَـاحِ أَنْـتَ أُرِيـدُ أَنْـتَـا**

---

(١) المرجع السابق، صـ ٧١.

(٢) المرجع السابق، صـ ٧٢.

(٣) عبد الهادي الشهري، إستراتيجيات الخطاب، صـ ٤٩٤، ٤٩٥.

(٤) أبو بكر الغزاوي، اللغة والحجاج، الأحمدية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، صـ ١٠٨.

ففي البيت الأول استعارتان مركبتان، الأولى منهما قوله: "تَـفُـتُّ فُـؤَدَكَ الأَيَـامُ" حيث جعل الأيام شخصًا أو أداة تكسر، كما جعل الفؤاد شيئًا ماديًا يُكْسَر. والثانية قوله: "تَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ" حيث جعل الساعات أداة للبري، وجعل الجسد شيئًا يُبْرى. أما البيت الثاني فالاستعارة فيه في قوله: "تَدْعُوكَ المَنُونُ" حيث جعل الموت إنسانًا يدعو. وهذه الاستعارات تكشف عن آليات حوارية وحجاجية وعملية في بنيتها تجعلها مركبة المستويات ومتداخلة الذوات ومتنوعة العلاقات(١).

وخطاب النصح عند الإلبيري مليء بالمشاهد الاستعارية؛ رغبةً منه في تقريب الصورة وتقويتها والتأثير في المرسل إليه (المنصوح)، ومن ذلك تصويره للعلم برجل يجلو ويهدي، وذلك في قوله في البيت الثامن:

وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا * وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا**

ومنها قوله في البيت التاسع والأربعين متحدثًا عن الدنيا:

وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ * سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا**

حيث جعل الدنيا تُطْعِم وتَطْعَم، والغرض من هذه الاستعارة هو التخويف والتحذير من الركون إلى الدنيا والفرح بما يحصل عليه فيها من خير.

ومنها قوله في البيت الثاني والسبعين:

وَنَـادَكَ الْكِتَـابُ فَـلَـمْ تُجِـبْـهُ * وَنَبَّهِكَ المَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا**

حيث جعل الكتاب رجلًا ينادي، وجعل المشيب إنسانًا ينبه، والغرض من هاتين الاستعارتين التقريع.

---

(١) انظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، صـ ٣١٣.

ومنها قوله في البيت الخامس والثمانين:

تَـفِـرُ مِـنَ الـهَـجِـيـرِ وَتَـتَّـقِـيـهِ * فَهَلَّا مِنْ جَهَنَّـمَ قَدْ فَرَرْتَا**

حيث جعل الهجير رجلًا يطارد ويُفَر منه.

وغير ذلك من الاستعارات التي عدل الإلبيري إليها من أجل الوصول إلى أهدافه الحجاجية التأثيرية الإقناعية.

المبحث الخامس

تداولية الأخبار في خطاب النصح

تختلف الأنماط اللغوية للخبر باختلاف المقام والقصد الذي يروم له المتكلم؛ فكما يقول السامرائي: "اختلاف المباني دليل على اختلاف المعاني"[1] والأغراض، ويمكن ملاحظة بعض الظواهر اللغوية الخاصة بالخبر التي وظفها الإلبيري في الإخبار في خطابه النصحي، ومن هذه الظواهر ما يلي:

أولًا: الجملة الفعلية (توظيف الزمن):

استخدم الإلبيري الجملة الفعلية، ونوع فيها استخدامه للزمن، فتارة يستخدم الماضي، وتارة يستخدم المضارع، وتارة يستخدم المستقبل، وقد وظف الإلبيري كل زمن من هذه الأزمنة توظيفًا محددًا يتفق مع مقام النصح، ويخدم السياق الذي قيل فيه.

وقد افتتح الإلبيري تائيته بسلسلة من الجمل الخبرية الفعلية المضارعة تعبر عن حال المنصوح، واستعمال الفعل المضارع ملائم مع هذا المقام؛ حيث إن النصيحة تكون بسبب فعل متكرر من المنصوح وناتج عن غفلة منه وجهالة. فالجمل الفعلية المضارعة: "تفت فؤادك الأيام"، و"تنحت جسمك الساعات"، و"تدعوك المنون دعاء صدق"، و"أراك تحب عرسًا..."، و"تنام الدهر.. في غطيط"، تدل على تجدد تلك الأحداث واستمراريتها، وهو الداعي إلى توجيه النصيحة.

كما استخدم المضارع في قوله في البيت الحادي والخمسين:

وَتَشْهَدُ كُلَّ يَـوْمٍ دَفْـنَ خِـلٍّ * كَأَنَّـكَ لا تُـرَادُ لِمَا شَـهِدتَّا**

---

(١) فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، جـ١، صـ ١١.

فاستمرار رؤيته لهذا المشهد الوعظي دون الاتعاظ داعٍ لتوجيه النصح والتذكير.

وكذلك استخدم الجمل الفعلية المضارعة في الدلالة على ما يحدثه العلم من أثر، وذلك في قوله [الأبيات: ٨، ٩، ١٠]:

وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا * وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا**

وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا * وَيَكْسُوكَ الجَمَالَ إِذَا عَرَيْتَا**

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا * وَيَبْقَى ذِكْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا**

وكذلك في قوله في البيت الثالث عشر:

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ * وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدتَّا**

فالدلالة على الاستمرار والتجدد أكثر ملائمة مع الترغيب في الحث على طلب العلم؛ حيث إن الإنسان يشعر بتجدد الفائدة منه فيسعى إليه؛ رغبةً في الفائدة المتجددة.

وكذلك استخدام المضارع في إيضاح أثر المعايب بقوله في البيت الثاني والتسعين:

وَتَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا * وَيُبْدِلُهُ مَكَانَ الفَوْقِ تَحْتَا**

فاستمرار ذلك وتجدده أكثر ملاءمة مع التخويف والتهديد الذي يسعى إليه الإلبيري. وقد استخدم المضارع كذلك للترغيب في الطاعات، والدلالة على استمرار فوائدها وتجددها؛ وهو الداعي إلى العمل بها والتزامها، وذلك في قوله [الأبيات: ٩٣، ٩٤، ٩٥]:

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي * وَتَجْعَلُكَ القَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَّا**

وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا * وَتَلْقَى البِرَّ فِيهَا حَيْثُ شِئْتَا**

وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا عَزِيزًا * وَتَجْنِي الْحَمْدَ فِيمَا قَدْ غَرَسْتَا**

وقد وظف الإلبيري الزمن المستقبل للدلالة على عواقب الأمور الحسنة إذا هو عمل بنصيحته، والسيئة إذا هو أغفلها وأهملها؛ أي وظف المستقبل في الترغيب والترهيب، وذلك في قوله في البيت التاسع والعشرين وما بعده:

سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ العَجْزِ جَهْلًا ××× وَتَصْغُرُ فِي العُيُونِ إِذَا كَبِرْتَا

وتُفْقَد إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ ××× وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَلَوْ فُقِدتَّا

وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ ××× إِذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا

وَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا ××× وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا

فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا ××× وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

كما وظف الماضي في الأخبار الوصفية التقريعية التي يقبح بالإنسان أن تصدر منه ولو مرة واحدة، ومن ذلك قوله مخاطبًا ابنه في البيت السادس والثلاثين:

جَعَلْتَ المَالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلًا * لَعَمْرُكَ فِي القَضِيَةِ مَا عَدَلْتَا**

فتقديم المال على العلم أمر شنيع لم يتحمل الإلبيري أن ينسبه إلى ابنه على سبيل اللزوم أو التجدد والاستمرار؛ فعدل إلى صيغة الماضي. ومن ذلك أيضًا قوله في البيت الثامن والسبعين:

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى * لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا**

ومن الملاحظ أن الإلبيري قد قرن لفظ "الجهل" بالزمن الماضي في البيتين السابقين، وهو ما يؤكد قبح هذه الأفعال، وأنه يقبح بالمرء أن يأتي بها ولو مرة.

ومن ذلك يتبين أن الإلبيري استطاع توظيف الجملة الفعلية بأزمنتها المختلفة توظيفًا يناسب الحال والمقام.

ثانيًا: الجملة الاسمية:

وظف الإلبيري الجملة الإسمية في خطابه النصحي كما وظف الجملة الفعلية من قبل. وإن كان الإلبيري قد وظف الجملة الفعلية في وصفه للأثر الذي يحدثه العلم وما يتصف به الإنسان من هذا الأثر فإنه وظف الجملة الاسمية في أوصاف العلم ذاته للدلالة على الثبات واللزوم، وأن هذه الخصائص لا تتخلف عنه بحال من الأحوال، وهذا ما يدعو إلى السعي إليه لذاته، ومن ذلك قوله في البيت الحادي عشر:

هُوَ العَضْبُ المُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو * تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدتَّا**

وكذلك استخدم الجملة الاسمية عند الحديث عن الأمور التي تمثل قاعدة ثابتة، كما في الشطرين الأولين من قوله في البيت الحادي والعشرين وما بعده:

فَـرَأْسُ الـعِـلْـمِ تَـقْـوِى اللهِ حَـقًّـا * وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ: لَقَدْ رَأَسْتَا**

وَأَفْضَلُ ثَوْبِكَ الإِحْسَـانُ لَكِـنْ * نَرَى ثَوْبَ الإِسَاءَةِ قَدْ لَبِسْتَا**

فقوله "رَأْسُ الـعِـلْـمِ تَقْوِى اللهِ"، و"أَفْضَلُ ثَوْبِكَ الإِحْسَانُ" يمثلان قواعد ثابتة راسخة يلائمها استخدام الجملة الاسمية دون غيرها. وخطاب النصح يحتاج إلى تلون وتنوع قد يتنافى مع الجملة الاسمية وهو ما يعكس قلتها في تائية الإلبيري.

الخاتمة

قدمت الدراسة خلال مباحثها الخمس دراسة لغوية متعددة المداخل، وكان مجال تطبيقها على خطاب النصح في الشعر الأندلسي متمثلًا في تائية أبي إسحاق الإلبيري المشهورة بـ "وصية ناصح"، وهي قصيدة يحث فيها ولده على طلب العلم والعمل به والتخلق بالأخلاق الكريمة. وقد خلصت الدراسة إلى عدة نتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

أولًا: استطاع الإلبيري أن يصوغ هوية جديدة للعلاقة بين المرسل الناصح والمرسل إليه المنصوح؛ مستخدمًا في ذلك الضمير والكنية والنداء. وهذه الهوية أكثر توافقًا مع خطاب النصح الذي يفضل فيه ترك علاقة السلطة الأبوية إلى علاقة متكافئة كعلاقة الأصدقاء.

ثانيًا: استخدم الإلبيري مجموعة من الألفاظ التي اتسمت بالانسجام مع الغرض العام (غرض النصح) في مقامي الترغيب والترهيب، واستخدامه لاستراتيجيتي الترغيب والترهيب أو الوعد والوعيد جعل ألفاظه موزعة على معجمين تحت هذين النمطين، معجم ألفاظ الترغيب، ومعجم ألفاظ الترهيب. ومن خلال هذين المعجمين اللغويين استطاع الإلبيري صياغة نموذج النصح وجعله متلائمًا بألفاظه مع غرضه الذي وضع من أجله قصيدته.

ثالثًا: اشتمل خطاب النصح الإلبيري على بعض الإستراتيجيات التوجيهية التي تقوم بدور فعال في عملية النصح، ومن هذه الإستراتيجيات: الأمر والنهي والاستفهام، وقد استخدمهما الإلبيري تارة بدلالتهما المباشرة أو بدلالات تداولية أخرى تلائم مقام خطاب النصح والإرشاد.

رابعًا: وظف الإلبيري في خطابه النصحي بعض الإستراتيجيات الحجاجية التي تقوم بدور إقناعي، ومن هذه الوسائل الإقناعية التعليل، والمقابلة والتبادل والاستعارة.

خامسًا: كما استطاع الإلبيري أن يوظف الزمن في خدمة خطاب النصح وجعله ملائمًا للغرض المراد في عملية النصح؛ حيث استخدم المضارع فيما يحتاج إلى التجدد والاستمرار، واستخدم الماضي فيما يقبح أن يصدر مرة واحدة من الإنسان، كما استخدم المستقبل في توضيح عواقب الأمور.

وبذلك تمكن الإلبيري من أن يضع نصًا نصحيًا ناجحًا ومقبولًا.

المصدر والمراجع

أولًا: المصدر:

١. أبو إسحاق الإلبيري، وصية ناصح، تحقيق/ مركز السنة للبحث العلمي، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠١٤م.

ثانيًا: المراجع العربية:

١. ابن الأثير (مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني، جـ ١١، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٢. أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، تحقيق/ أحمد أحمد شتيوي، دار الغد الجديد، المنصورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

٣. أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، تحقيق/ حسن نجار محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠١١م.

٤. الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب)، إعجاز القرآن، تحقيق/ السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، ٢٠١٠م.

٥. البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل)، الصحيح، دار الحديث، القاهرة، د. ط، ٢٠٠٤م.

٦. أبو بكر الغزاوي، اللغة والحجاج، الأحمدية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

٧. الجرجاني (علي بن محمد بن علي الزين الشريف)، كتاب التعريفات، تحقيق: فريق بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٨. خليل إبراهيم السامرائي، وآخران، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٩. خير الدين الزركلي، الأعلام.. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

١٠. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

١١. عبد الجيل العشري، آليات الحجاج القرآني.. دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

١٢. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق/ محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.

١٣. عبد الله جاد الكريم، التداولية في الدرس النحوي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

١٤. عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

١٥. عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب.. مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

١٦. عماد عبد اللطيف، إستراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي.. خطب الرئيس السادات نموذجًا، الهيئة المصرية للكتاب، د.ط، ٢٠١٢م.

١٧. فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

١٨. ابن كمال باشا، أسرار النحو، تحقيق/ أحمد حسن حامد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢.

١٩. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي.. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، أفريقيا الشرق، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.

٢٠. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٢١. أبو المعالي الجويني، متن الورقات، تحقيق/ أبو أنس أشرف بن يوسف، دار العقيدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٢٢. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي)، لسان العرب، تحقيق: اليازجي وآخرون، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ.

ثالثًا: المراجع المترجمة:

١. توماس أ. سلوان، موسوعة البلاغة، ترجمة: نخبة بإشراف عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

٢. جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع.. الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة/ صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٣. ڤندريس، اللغة، ترجمة/ عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، المركز القومي للترجمة، القاهرة، د.ط، ٢٠١٤م.

٤. ميشيل دوريتشر دون، الديمقراطية في الخطاب السياسي المصري المعاصر، ترجمة/ عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

رابعًا: بحوث ودراسات:

١. عبد المنعم عبد الله حسن، الظلال الدلالية لمفهوم النصيحة، ضمن كتاب مؤتمر النصيحة.. المنطلقات والأبعاد، كلية الدعوة والإعلام، جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، د.ط، د.ت.

٢. عز الدين المجدوب، مساهمة في دراسة المشيرات المقامية في القرآن، ضمن كتاب "التداوليات وتحليل الخطاب.. بحوث محكمة"، دار كنوز المعرفة، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٣. محمود علي عبد المعطي، التشكيل الفني وأبعاده الجمالية في رائية التهامي "يا كوكبًا ما كان أقصر عمره" مجلة جذور، العدد ٤٠، إبريل ٢٠١٥م.

خامسًا: المراجع الأجنبية:

1. Leech, G. (1983), Principles of pragmatics, Longman Group Limited, London.
2. Yule George, (1996), Pragmatics, Oxford Oxford University Press.

Advice Discourse in the Ta'iyyah of Abu Ishaq al Ilbiri A Linguistic study

Dr. Abdelaziz Elsayed Abdelaziz Elbdawy

Lecturer of Linguistics -Department of Arabic Language

Faculty of Al-Alsun - Ain Shams University

Abstract:

Advice is a word that generally expresses the good will for whoever advised, and it cannot be fully explained in one word. The discourse of advice is the one in which rhetorical devices are used to encourage a moral reform progression, or to hail a distinctive moral act based on experience or belief or mutual hope.

In this regard, The Andalusian environment is known to be an environment of science, literature and morals, and its scientists have always enjoyed a prestigious status. Therefore, urging people to seek knowledge and strive for it was the loftiest advice a mentor could give to a protégée or a father to his son. This is what Abu Ishaq al-Ilbiri (d. 459 AH) did since he wrote his well-known Ta'iyyah poem "A Mentor's Will", in which he urges his son to seek knowledge, act accordingly, and adopt good morals.

The study adopts various linguistic approaches including: discourse analysis, argumentation, and pragmatics. It seeks to reveal whatever aspects found in the advice discourse. Discourse analysis clearly indicates the nature of the sender-recipient relationship. Argumentation reveals the persuasion means of the recipients in this type of discourse, while pragmatics is concerned with studying the intended meaning of the speaker or the writer and its interpretation by the listener or the reader.

Keywords: Discourse, Advice, Al-Ilbiri, Linguistic.